الباب الرابع

صراع دولة الحسن الصباح مع العالم السنى فى بلاد المشرق[1]

١ — عوامل نجاح الحسن الصباح فى سياسته الخارجية فى بلاد المشرق:

كان استيلاء الحسن الصباح على قلعة «آلموت» — جنوبى بحر قزوين — بالطريقة الآنفة، تحديا للدولة السلجوقية السنية، وعاملا من أقوى العوامل التى ساعدت على تقوية جانب الحسن ورفاقه. كما كان لانضمام بعض ولاة ملكشاه السنيين إلى جماعة الحسن، أثره فى تنبه السلاجقة للخطر الذى سوف يتعرضون له، إذا ما قدر النجاح لتلك الفرقة الدينية السياسية الخطيرة. هذا إلى ما قام به أنصار المذهب النزارى فى أنحاء العالم الإسلامى من اغتيال منظم أضاع هيبة السلاجقة السنيين، الذين رأوا أنه من الواجب عليهم أن يدافعوا عن هيبتهم الضائعة أولا، وعن العالم الإسلامى السنى، باعتبارهم أكبر قوة إسلامية سنية، ثانيا. ومن ثم كان الصراع العنيف مع الحسن الصباح.

وكاد سلاطين السلاجقة ينجحون ضد الحسن، لولا ظهور عوامل كثيرة، من أهمها: موت السلطان ملكشاه، فى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م)، فقد كان موته ضربة قاضية، وجهت إلى العالم السنى عامة، وإلى دولة السلاجقة

---

(١) أقصد ببلاد المشرق هنا، فارس وخراسان.

بوجه خاص ، كما كان موته فرصة نادرة المثال ، بالنسبة للنزارية ، الذين استغلوا اختلاف أبناء هذا السلطان على العرش بعد أبيهم ، وما تبع ذلك الاختلاف من قيام تلك الحروب الأهلية المدمرة بينهم ، والتى بقيت عشرات السنوات ، على ما سنرى . فانتهز النزارية ذلك العراك الطاحن وزادوا فى قوتهم ، وأخذ الحسن يعمل على امتلاك القلاع والحصون من السنين . كل ذلك وأبناء ملكشاه معنيّون بأمورهم الخاصة فى أثرة منقطعة النظير ، فلم يوجهوا عنايتهم وحجافلهم نحو الحسن الصباح ، إلا بعد أن استكمل هو وأنصاره ، وسائل الدفاع عن أنفسهم ، وبعد أن تمكنت قوتهم من البلاد التى استقروا بها ، وساد نفوذهم شرقا وغربا ، فكان من المتعذر إذن على السلاجقة اجتثاث بذور النزارية . كما لم يعد فى حيز الإمكان أن تكون نهاية هذا الزعيم النزارى الصباح ومن معه ، على أيدى هؤلاء السلاجقة المنشقين على أنفسهم .

وخلاصة القول أنه لولا موت السلطان ملكشاه ، وقيام الحروب الأهلية بين أبنائه من بعده ، وبخاصة تلك الحرب العنيفة ، التى قامت بين الأخوين : ركياروق ومحمد ، ابنى السلطان ملكشاه[١] ، لولا ذلك ، لتغير تاريخ النزارية .

ولا غرو فقد عجز هؤلاء الأمراء عن القيام بأية محاولة جدية ضد النزارية ، لانتزاع قلعة (آلموت) منهم ، واستئصال جذورهم ، قبل استفحال خطرهم ، بالأولى لم يستطع السلاجقة بسبب تلك الحروب الأهلية ، أن يقوموا بهجوم عام خاطف ، على جميع قلاع الدعوة النزارية[٢] ، وإخراجهم

---

(١) ابن سفنديار : تاريخ طبرستان (ترجمة براون) ، ص ١٤٠ .

(٢) Lockhart : Hasan-i- Sabbah. (J.R.A.S. 1931), p. 684

منها. وليس هذا فقط ، بل أخذ أعداء السنيين ينضمون إلى النزارية[١] جماعات جماعات . وهذا يفسر لنا سر قوتهم ، فى أواخر القرن الخامس ، وأوائل القرن السادس خاصة .

ولم يقف الأمر عند موت السلطان ملكشاه ، وقيام النزاع بين أبنائه على الملك ، بل تعداه إلى ظهور خطر خارجى هائل ، كاد يعصف بالعالم الإسلامى ، ذلك الخطر هو هجوم الصليبيين على المشرق ، وعبثهم بالممالك الإسلامية الواقعة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط . فقد كان هذا الهجوم المفاجىء الخاطف على العالم الإسلامى ، بعد موت السلطان ملكشاه ، صدمة عنيفة للسلاجقة . كادت تودى بهم وبدولتهم .

حقا ! لقد اقتضى الصراع بين السلاجقة ، وبمثلهم أتابكة الشرق الأدنى ، وبين الصليبيين ، إلى بذل مجهود هائل شغل دولة السلاجقة عن الانتباه للحسن الصباح ، الذى استغل هذا الظرف الملائم ، فضاعف جهوده للاستفادة من ذلك الاضطراب العنيف بين الشرق والغرب ، وأرسل رسله وأنصاره إلى بلاد الشام ، فتمكنوا بعد جهود كبيرة ، من أن يفعلوا هناك ، مافعله الحسن فى بلاد المشرق : من الاستيلاء على القلاع الجبلية القوية ، وتكوين مجتمعات إسماعيلية هناك ، من القلاع ودور الدعوة . لا همّ لها جميعا إلا الصراع ضد السنيين .

« وهكذا استفاد الصليبيون ، كما استفاد النزارية ، من حالة الفوضى والنزاع ، اللذين وقعت فيهما الدولة الإسلامية السنية ، وكان كلا الجماعتين

---

(١) Defremery : Essai Sur l'Hist. des Ismaeleéns, p. 83

ـ النزارية والصليبيون ـ عدوا شديد المراس للمسلمين السنيين[١] ».

على أن هناك عوامل أخرى غير العاملين السابقين ، كان لها الأثر الكبير فى زيادة قوة الحسن الصباح ونفوذه السياسى ، من ذلك ، الطرق التى درج النزارية عليها ، من القتل غيلة ، والوسائل المزعجة التى كان الفداوية يسلكونها ، فى الفتك بضحاياهم والتمثيل بهم ، تلك الوسائل التى أرهبت القواد والملوك والشعوب ، فأخذ بعض القواد ـ تبعا لذلك ـ يتوانون فى الهجوم على النزارية ، ويهملون أمورهم . بل لقد تغاضى الكثير من الملوك والأمراء عنهم ، واتفق بعض منهم معهم ـ مثل السلطان سنجر ـ وجعل كثير من قواد المسلمين ينضمون إليهم ، خوفا ورهبة .

وهكذا ملك الخوف من خناجر الفداوية على الناس قلوبهم ، فلم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة ، فصار الناس فيهم فريقين : فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة[٢] ، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة[٣] ، فمن عاداهم خاف من فتكهم ، ومن سالمهم نسب إلى شركهم فى شركهم ، وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين »[٤] .

وإذن كان للمبادىء التى وضعها الحسن الصباح فى إخافة الناس ، وتهديم أعصابهم ، والقضاء على روحهم المعنوية ، أثر كبير فى تقوية النزارية ضد السنيين خاصة ، أو قل : كانت هذه الأسس نوعا جديدا من « حرب الأعصاب » ، التى يستغلها المحاربون اليوم فى القضاء على مقاومة العدو .

---

(١) Taylor ; Hist. of Mahammedanism & Its Sects, p. 217

(٢) التعنيف ، لا بمعنى المساهمة .

(٣) الموادعة : المصالحة .

(٤) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٣ .

وغير خاف علينا أن الحسن الصباح تمكن من أن يجذب إلى صفوفه كثيرا من كبار موظفى السلاجقة ، حتى أن بعض الوزراء والقواد كانوا على هوى النزارية : فهذا الوزير الدركزينى، يتآمر معهم على سيده السلطان محمد (+ ٥١١ هـ) ، ويخلقون منه جاسوسا خطيرا يستعينون به على تنفيذ مآربهم فى دولة السلاجقة. وهذان غلاما السلطان محمد بن ملكشاه من أخلص تلامذة الحسن الصباح . وبذلك نستطيع القول بأن تشيع كبار موظفى السلاجقة ، كان من أقوى العوامل فى نجاح دعوة الحسن الصباح وانتشارها (١)

وبجانب هذا وذاك ، كانت البلاد التى روّج الحسن الصباح فيها مذهبه، بلادا تأصل فيها الإلحاد منذ عهد بعيد ، فقديما تأثر أهلها بمبادىء مزدك الاشتراكية الهدامة . وفى العصر الإسلامى راجت فيها مبادىء كثيرة لها خطورتها ، مثل مبادىء البابكية الخرمية ، نسبة إلى بابك الخرمى ، الذى انضم إليه المتشيعون الغلاة ، ولذلك لا يبعد أن تنال دعوة الحسن الثورية فى تلك البلاد كثيرا من النجاح . أضف إلى ذلك أن مبادىء الشعوبية كانت رائجة هنالك ، وأن قلوب الأهلين فيها كانت تفيض بمقت العرب ودينهم ، فتمكن الحسن الصباح بفضل ذلك كله من إيجاد أرض صالحة لدعواه ، فنمت وترعرعت وآتت أكلها ، وأثمرت خير الثمار .

ولا ننس ما نال فريق الشيعة الاثنا عشرية من ضعف ، فقد طال انتظارهم لمهديهم، الذى اختفى فى سرداب بسامرا، منذ سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م)

---

(١) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٣ .

ويئس الكثير من الاثنا عشرية ذوى المطامع والآمال ، أن يروا دولتهم التى ينشدونها تحكم العالم الإسلامى . وتبدل الجور الحائق بهم بعدل شامل . وقد وجد هؤلاء مبتغاهم فى الانتقال إلى المذهب الإسماعيلى ، وكان الحسن الصباح نفسه أحد أولئك الاثنا عشرية ، الذين تركوا مذهبهم ، واعتنقوا المذهب الإسماعيلى .

وإذن كان لزعزعة الأفكار ، والمبادىء الاثنا عشرية فى بلاد فارس ، أثرها فى نجاح دعوة الحسن الصباح ، انظر إلى ما يقوله المؤيد فى الدين ، هبة الله الشيرازى ، داعى دعاة الفاطميين ، وهو يكاد يكون معاصرا للصباح ، حيث يسمو بالإسماعيلية ويضع بالاثنا عشرية . فيقول : « ومعلوم أن أولاد عمنا أبى ابراهيم ، موسى بن جعفر [الكاظم] ، مافيهم من قاد عسكرا ، أو أثار من الملك عثيرا ، ولا من توج بذكر على وفاطمة وولدهما منبرا ، كفعل آبائنا الأئمة الهداة(١) البررة ، فأى الفئتين أسبق عند جدها وأبيها بالفضل ؟ إن من صح وجوده من أولاد موسى الكاظم ليس عندهم علم خاص بهم ، وأنهم ارتموا فى أحضان المعتزلة ، واستقوا من علماء الكلام أصول التوحيد على مذهب المتكلمين ، فخسروا بذلك علم الأئمة »(٢) . فاذا قرأ الناس أقوال المؤيد وسواه من الدعاة الإسماعيلية ، تزعزعت عقيدتهم فى زعماء الاثنا عشرية ، وآثروا عليهم الإسماعيلية .

---

(١) المقصود : الأئمة الإسماعيلية .

(٢) المؤيد : المجالس المؤيدية ، جـ ٢ ورقة ٧٦ ، ٧٧ (عن رسالة الدكتور محمد كامل حسين) . والمقصود بعلم الأئمة أصول المذاهب الشيعية .

ولو أضفنا إلى ذلك مناعة القلاع التى استقر بها الحسن الصباح وأنصاره ، أدركنا سر نجاحه الكبير ، ولا غرو ، فقد اختار الحسن لدعوته ، البلاد الوعرة ، التى يصعب على الجيوش المنظمة أن تنال منها غرضا والتى يسهل على الدعاة التأثير فى أهلها ، وإدخالهم ، فى المذهب الإسماعيلى ، وقد استطاع الحسن الصباح ، أن يكوّن أخطر الفرق فى الإسلام بين سلاسل جبال طبرستان ، جنوبى بحر قزوين ، وسلاسل جبال قوهستان ، دون أن ينال السلاجقة منه غرضا . بل إنك لتراه يدافع عن « قلعة آلموت » ومعه عشرات من الرجال لاغير ، ثم ينهزم بهذا العدد الضئيل جيوش السلطان ملكشاه . ثم ابنه السلطان محمد (٤٩٨ — ٥١١ هـ) ، بوجه خاص .

على أن طريقة الحسن الصباح فى نشر الدعوة السرية وبلبلة الأفكار بين الأعداء ، وزعزعة عقائدهم ، كان لها أثر كبير فى نجاحه . فقد اتخذ من دور دعوته ، نقط ارتكاز فى بلاد الأعداء ، كما اتخذها محطات للجاسوسية التزارية ، وإنك لترى كثيرا من موظفى الحكومة السلجوقية ضمن أشياعه ، فكان لدور هجرته هذه أثرها فى إطلاعه على أسرار السلاجقة وخبايا السنيين . كل هذه العوامل كانت من أكبر دواعى نجاح الحسن الصباح واستقرار دولته .

٢ — صراع الحسن الصباح مع السلطان ملكشاه $\frac{٤٦٥}{٤٨٥}$ هـ = $\frac{١٠٧٢}{١٠٩٢}$ م

من العوامل التى ساعدت الحسن الصباح على النجاح فى أيامه الأولى ، أن رياسة الدعوة فى المشرق كانت موضوعة فى يديه ، وفى يدى أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، هذا فى أصفهان — مقر السلطان ملكشاه ،

وذلك فى «آلموت» - جنوبى بحر قزوين . وكان من حسن حظ النزارية، أن السلاجقة لم يدركوا خطر هذا الفريق فى أصفهان ، إلا بعد موت السلطان ملكشاه، أما فى «آلموت»، فقد ترك السلطان ملكشاه أمر تأديب الصباح ونزاريته لعماله فى «رودبار»[١]. وطبرستان ، جنوبى بحر قزوين ، فلم يستطع هؤلاء العمال أن ينالوا من الحسن غرضا .

أقطع السلطان ملكشاه إقليم «رودبار» ، إلى أحد قواده ، ويدعى «ألتونتاش» ، فأدرك هذا القائد خطر الحسن الصباح وفرقته ، فلم يأل جهدا فى الوقوف فى وجه النزارية ، وهاجم معقلهم الرئيسى فى «آلموت» مرات عدة، فى عهد السلطان ملكشاه ، حتى أصاب أهلها الوهن ، وتناقص عددهم ، وكادوا يلقون السلاح ، ويفرون منها إلى البلاد المجاورة .

وقد ساعدت الظروف الحسن الصباح ، إذ تكاتف سكان القلعة معه، بعد أن قوى عزائمهم، بادعائه أن رسالة وصلت إليه من إمامهم الخليفة المستنصر الفاطمى ، وفيها يحثهم على البقاء فى آلموت ، ويعدهم بالنصر ما داموا صامدين فى هذه القلعة. فتمكن الحسن، بفضل تلك الدعوى، من الإبقاء على أهل «آلموت» ملتفين حوله . هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تنفس النزارية الصعداء ، بموت الأمير «ألتونتاش»[٢] والى إقليم «رودبار» السلجوقى .

والحق أن الحسن الصباح قد حالفه الحظ بموت ذلك الأمير ، حتى

---

(١) وهو الإقليم الذى تتوسطه «آلموت» ، التى تقع فى ابتداء بلاد الديلم غربا . انظر . ياقوت .

(٢) Defremery ; Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, p. 77

سمى قلعة «آلموت» تبعا لذلك قلعة «الحظ» أو قلعة «السعادة». ومعنى هذا أن الحسن الصباح بدأ صراعه مع السلاجقة، فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى، ولا يبعد أن يكون ذلك الصراع بوحى من هذا الخليفة نفسه.

لم يكن السلطان ملكشاه قد أدرك خطر الحسن بعد، فلما رأى ما آلت إليه قوته بعد موت الأمير «ألتونتاش»، وبعد أن اجتمع جماعة من النزارية، «فصلوا العيد وحدهم فى مدينة ساوه (١)، وفتكوا بمؤذنها حين رفض الدخول فى مذهبهم (٢)». لهذا كله، ولسعى نظام الملك بهم، عزم السلطان ملكشاه على استئصالهم، فأعد جيشين، وجههما من جديد إلى قاعدتى النزارية فى إقليم «رودبار» (آلموت) وفى أقليم قوهستان (طورشيز (٣)) وجعل، فى قيادة جيش رودبار، الموجه ضد الحسن الصباح نفسه، «أرسلان تاش»، أحد قواده المشهورين، كما وضع قائده المشهور «قزل تاش» على رأس جيش قوهستان، الموجه ضد «الحسين القينى»، الذى كان واليا على قلعة «طورشيز»، أشهر قلاع قوهستان، قبل انضمامه إلى الحسن الصباح. على ما رأينا.

---

(١) ساوة: مدينة تتوسط الرى وهمذان، وبالقرب منها مدينة آوة، وكل أهلها شيعة إمامية. انظر ياقوت.

(٢) كان قتل النزارية المؤذن سببا فى قتل نظام الملك، الوزير، أحد أتباعهم، وكان تجارا، فكان هذا التجار أول قتيل من الإسماعيلية.

(٣) طورشيز: قرية أو قلعة تقع فى إقليم نيسابور، بينها وبين مدينة نيسابور ثلاثة أيام.

قامت هاتان الحملتان، فى أوائل سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م)، وكان كل من القائدين السنيين يحمل الأوامر الصارمة من السلطان، يحثه فيها على استئصال شأفة النزارية أينما وجدوا. وقد نجح القائد «أرسلان تاش»، فى الوصول إلى قلعة «آلموت» فى جمادى الأولى سنة ٤٨٥ هـ = يونيه سنة ١٠٩٢م)، وضيق عليها وعلى من بها الخناق، حتى أنه لم يبق مع الحسن إلا أربعون رجلا، وطلب النجدة من أنصاره الإسماعيلية، فأنجده الدهدار[١]. أبو على الأردستانى[٢] بثلثمائة رجل؛ فتمكن الحسن الصباح بهذه النجدة من الهجوم على القائد السلجوقى، «أرسلان تاش»، وعلى الرغم من قلة عدد النزارية، إذا قورنوا بأعدائهم، فإنهم تمكنوا من إيقاع الهزيمة التامة بجيش السلاجقة، وفر القائد نحو أصبهان.

وصف البندارى ذلك بقوله: «وصل المدد إلى قلعة «آلموت»، وبمساعدة سكان القلعة، ومساعدة إسماعيلية رودبار، هوجم معسكر «أرسلان تاش»، فارتد مهزوما. وقد تألم السلطان ملكشاه لذلك، وعزم على إبادة النزارية، ولكن حانت منيته دون تحقيق هذا، وبموته وقف دولاب العمل ضد النزارية، الذين أخذت قوتهم تنمو باضطراد[٣].

على أن وصول المدد النزارى من الرى إلى «آلموت» دون اعتراض

---

(١) الدهدار: شيخ القرية.

(٢) نسبة إلى أردستان، وهى بلدة بين قاشان وأصبهان.

(٣) Defremery; Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, pp. 78-9

الجيوش السنية له فى الطريق، يعتبر أكبر دليل على مدى الفوضى فى الدولة السلجوقية السنية، كما يعتبر دليلا آخر على مدى انتشار المذهب الإسماعيلى فى بقاع كثيرة من بلاد فارس .

وإذا كانت هذه هى نهاية جيوش أرسلان تاش فى « آمل » ، فإن زميله « قزل تاش » لم يستطع فتح قهستان ، وذلك أنه على الرغم من نجاحه ضد الداعى الكبير « الحسين القينى » ، والى النزارية على إقليم قهستان ، اضطر إلى رفع الحصار عن ذلك الوالى الإسماعيلى ، حين علم بموت السلطان ملكشاه ، واستطاع الإفلات من تلك البلاد الحصينة بشق النفس .

ويذهب ابن الجوزى إلى القول بأن الحسن الصباح استخدم حرب الأعصاب فى صراعه مع السلطان ملكشاه ، فكان يهدد هذا السلطان بالتخويف من خناجر فداويته ، بإظهار طاعة أنصاره وإخلاصهم له . ونعتقد أن الحسن لم يلجأ إلى هذا التهديد قبل عهد السلطان محمد بن ملكشاه . وعلى أية حالة ، يقول ابن الجوزى[1] : « وكان ملكشاه قد أنفذ إلى ابن الصباح، يدعوه إلى الطاعة ويتهدده، ويأمره بكف أصحابه عن قتل العلماء والأمراء ، فقال للرسول : الجواب ما تراه ، ثم قال لجماعة كانوا وقوفا بين يديه : أريد أن أنفذكم إلى مولاكم فى حاجة ، فمن ينهض لها ؟ فاشرأب كل واحد منهم لذلك ، وظن الرسول أنها رسالة يحملها إياهم ، فأومأ إلى شاب منهم ، وقال : اقتل نفسك : فجذب سكينة وضرب

---

(١) مرآة الزمان : حوادث سنة ٤٩٤ هـ .

بها غلصمته [١] ، فخر ميتا . وقال لآخر : إرم بنفسك من القلعة ، فألقى نفسه ، فتقطع ، ثم التفت إلى الرسول ، وقال : قل له : إن عندى عشرين ألفا ، هذا حد طاعتهم . وعاد الرسول ، وأخبر ملكشاه ، فعجب وأعرض عن قتالهم » . وليس هذا صحيحا ، لأن السلطان ملكشاه مات وجنوده تقرع أبواب قلاع الإسماعيلية فى كل مكان — كما رأينا — .

ولم يكتف الحسن الصباح بذلك ، بل عزم على إحداث اضطراب عام فى ملك السلاجقة ، بالتخلص من الوزير السنى العظيم ، نظام الملك ، منافسه الخطير ، وأتبعه — على ما يقال — بسم السلطان ملكشاه . وقد تمكن الحسن من قتل هذا الوزير بأسلوب روائى درامى ، فى شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ ، بعد انتصاره على جيش القائد ، أرسلان تاش ، بشهر واحد ، وذلك على يد فداوى أتاه فى شكل متظلم . ولم يمض شهر آخر حتى مات السلطان ملكشاه ، فى شهر شوال من السنة نفسها ، مسموما ، على ما قيل .

ونحن لا نستبعد على اليد التى صاغت مقتل الوزير ، أن تصوغ مقتل السلطان ، والمهم أنه بتخلص الصباح من هاتين الشخصيتين ، خلا له الجو ، فتمادى أنصاره ، وعملوا على مد نفوذهم فى كل مكان ، وأخافوا الناس ، وانطبق عليهم قول الشاعر :

يالك من قنبرة بمعمر خلالك الجو فبيضى واصفرى [٢]

وقد سن الحسن بعمله هذا سنته الخطيرة فى قتل الوزراء والأمراء والملوك المعارضين ، فظل هذا دأب النزارية ، حتى قتلوا الخلفاء ،

(١) الغلصمة : رأس الحلقوم ، وهو الموضع الناتىء فى الحلق .

(٢) Defremery ; Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, p. 79

فاطميين كانوا أوعباسيين ، كما قتلوا العلماء . وفى هذا رد على من قال : إن القتل السياسى ، او الاغتيال المنظم، لم يكن من سياسة الحسن الصباح.

وقد كثر الكلام حول مقتل نظام الملك ، فمن قائل : إن الحسن الصباح ، بقتله نظام الملك ، انتقم لنفسه ، فقَتْلُه والحالة هذه ، انتقام شخصى ، والحق فى غير ذلك ، لأن قتل هذا الوزير يعتبر انتصارا للمذهب النزارى ، وانتقاما له من كبار معارضيه السنيين خاصة ، وفيه أيضا سنة جديدة ، سنها الحسن لأتباعه ، وهى قتل كل من عارضهم ، مهما عظم مركزه ، واستباحة القتل غدرا إذا عجزوا فى ساحة الوغى ، وإذن فإن قتل نظام الملك انتقام سياسى دينى وشخصى معا (١) .

ومن قائل : إن السلطان ملكشاه دس على نظام الملك من قتله ، لأنه سئم طول حياة هذا الوزير . وكره استبداده بالأمور هو وبنيه ، ولكن كيف يفعل السلطان ذلك ، وهو أكبر رأس سنية تدافع عن الإسلام والسنيين ضد الثوار . وعلى الأخص ضد النزارية . ؟

على أن هناك جماعة يغلون ، فيعتقدون أن هذا السلطان ، خاف على نفوذه وملكه من نظام الملك، وتأثر فى الوقت نفسه بعض التأثر بالمذهب الإسماعيلى ، فكره ، لذلك السبب ، نظام الملك ، عدو النزارية اللدود . لمّح ابن الجوزى إلى هذا بقوله : « إن السلطان ملكشاه قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته بعض الباطنية . ثم تنصل من ذلك ورجع إلى الحق » (٢) .

---

(١) Malcolm ; The Hist. of Persia, vol. ii, p. 243

(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ورقة ١٢ .

من هـذا كله نرى أن السلطان ملكشاه لم يستطع أن ينال غرضا من الحسن الصباح ، ولا من نزاريته ، ومات ،وهو متألم لعجزه عن الانتصار عليهم ، وترك مهمة الصراع معهم إلى أبنائه الذين مزقتهم الحروب الأهلية ، وفرقت شملهم بددا .

٣ — دولة الحسن الصباح وخلفاء ملكشاه :

(١) موقف الحسن من السلطان بركياروق (٤٨٧ - ٤٩٨ هـ)

راجت الدعوة النزارية ، وأخـذ أتباع الحسن ينشرونها فى جميع أنحاء فارس ، وأشعلوا الثورات فى كل مكان ، ودخل دعوتهم كثيرون من كبار السلاجقة ، بعد أن هزموا جحافل السلطان ملكشاه ، وتخلصوا من وزيره العظيم ـ نظام الملك ـ فانتهزوا قيام الحروب الأهلية التى أعقبت وفاة هذا السلطان فإن « الخاتون » ، زوجة السلطان ملكشاه ، وضعت ولدها الصغير « محمود » على العرش ، فقامت الحرب بين أنصارها وبين السلطان بركياروق بن السلطان ملكشاه ، وانضم النزارية ، فى ذلك الحين ، إلى السلطان محمود وأمه « الخاتون » ، وكادوا يفتكون ببركياروق ، وبموت السلطان محمود بعد قليل ، أصبح بركياروق سلطانا على السلاجقة .

وسرعان ما عارضه أخوه السلطان محمد بن ملكشاه ، وحاربه ، وكانت الحرب بينهما طويلة قاسية ، فانتهز الإسماعيلية النزارية ذلك ، وأخذوا يختطفون من لم يعتنق مذهبهم ، من الشوارع والطرقات ، وتفننوا فى طرق الفتك بالرعايا السذج ، فكانوا أحيانا يجلسون امرأة بأصبهان على حصير بالية ، يغطون بها بئرا ، أعـدوها لتكون قبرا لمن يأبى أن

ينضم إلى صفوفهم ويعتنق مذهبهم ، كما أعدوا رجلا ضريرا منهم ، يقف على رأس حارة من الحارات ، يطلب من المارة توصيله إلى نهاية الدرب ، ثم يفتكون بمن يرفض أن يعتنق مذهبهم كذلك .

وهكذا « لما مات السلطان ملكشاه آل أمرهم إلى أنهم كانوا يسرقون الناس ويقتلونهم ويلقونهم بالآبار ، فكان الإنسان إذا دنا وقت العصر ، ولم يعد إلى منزله يئسوا منه » (١) .

ولم يكتف نزارية الحسن بذلك ، بل تعرضوا للحاج ، وفتكوا بهم ، مقلدين بعملهم هذا ، إخوانهم القرامطة الإسماعيلية . فكانوا يتحدون الأمراء والوزراء ، ولا يخشون لهم بأسا ، وإنك لترى من النقاش الحاد الذى دار بين وزير السلاجقة وأحد الفداوية النزارية ، ما يدل دلالة قاطعة على إقدام الفداوية وجرأتهم . يقول ابن الجوزى (٢) فى حوادث سنة ٤٩٣ هـ : « وقتل رجل أميرا فى الرى ، فى دار الوزير فخر الملك بن نظام الملك . وقيل : إن الرجل باطنى ، فأحضر بين يدى فخر الملك ، فقال : ويحك ! قتلت هذا الأمير فى دارى ، وهتكت حرمتى ، وأذهبت حشمتى ! فقال له الباطنى : وهل لك حرمة مهتوكة ، ودار مملوكة ، أو حشمة تمنع من الدماء المسفوكة ؟ أو ما علمت أننا ستة نفر ، بعثنا إلى ستة لنقتلهم ، أحدهم أخوك ؟ قال : وهل أنا من جملتهم ؟ قال : أنت أقل من أن تذكر ، أو نلوث سكاكيننا بدمك » .

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام (مخطوط) ، ج ٣ ورقة ص ٤٧٧ .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٩٣

وكانت مدينة «أصبهان» من أهم المدن التى كان النزارية يقومون فيها بأروع فتكاتهم ، لعظيم تأثير الحسن الصباح وابن عطاش بها ؛ فقد كان فرار الصباح من نظام الملك إليها ، وكذلك حين عاد من مصر استقر بها ، وأخذ ينشر الدعوة المستنصر بها كذلك . هذا إلى أن أحمد بن عبد الملك ابن عطاش ، رئيس النزارية الثانى قد اتخذها مجالا حيويا للنزارية (١) ، وقد زاد نفوذهم بها حين أضحت فى قبضة « الخاتون » زوجة السلطان ملكشاه ، ثم فى قبضة « بركياروق » ، الذى أصبح على هواهم ، أو على الأقل ، الذى كان يداريهم ويتملقهم أثناء حربه مع أخيه السلطان محمد .

وقد انضم إلى صفوف النزارية كثير من خيرة رجال السلاجقة ، من هؤلاء ، صاحب « كرمان » ، الذى ثار به شعبه السنى ، بسبب اعتناق مذهب النزارية ، حتى لقد فر قائده إلى السلطان محمد بن السلطان ملكشاه ، واستقر بأصبهان ، وانتهى الأمر بموت صاحب « كرمان » هذا مقتولا (٢) ، ومعنى ذلك انتشار المذهب النزارى فى « كرمان » - جنوبى فارس - أيضا .

ولا نفس كذلك أن النزارية أضحوا فى وقت ما بطانة للسلطان بركياروق ، فقتلوا كثيرين من رجال أخيه السلطان محمد ، حتى رمى بركياروق نفسه باعتناق مذهب النزارية ، والحق أن بركياروق لجأ إلى النزارية ، ليستعين بهم على أخيه السلطان محمد ، فلما انتصر عليه استثار عداءهم ، وفتك بهم (٣)

---

(١) Defremery; Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, p. 81

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ١١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ١٠ ص ١٢٠ .

على أن جماعة من السنيين ، وبخاصة العلماء منهم ، قاوموا المذهب الإسماعيلي النزارى . وكان الغزالى ـ حجة الإسلام ـ من أكبر العلماء تصديا لهم ، وأخذ أولئك العلماء ينشرون فتاويهم ضد النزارية ، سواء أكانوا مدفوعين بوازع من أنفسهم ، أو بتحريض الأمراء السنيين ، واخذوا فى هذه الفتاوى يؤكدون أن النزارية أعداء للإسلام وملوكه وأمرائه وعامته. ويرمونهم بالكفر ، ويحرضون الدول والشعوب الإسلامية على حربهم .

يقول فون همر (١) : نال النزارية من العلماء وعلى رأسهم الغزالى . ما نال القرامطة الغلاة قبلهم من العلماء ، وخصوصا من الإمامين أبى يوسف(٢) ، ومحمد(٣) ، حيث أعلن الجميع إباحة دمائهم وممتلكاتهم ، وبذلك زاد الحنق عليهم من كل جانب ، ووجدت الحكومات نفسها فى حرب دائمة مع هذه الجماعة .

وعلى الرغم من أن كثيراً مما أورده فون همر صحيح ، إلا أننا لا نستطيع تصديق كل ماذهب إليه ، فإن القرامطة لم يكونوا قد ظهروا فى عهد هذين العالمين ، وإن كنا نعلم أن أبا يوسف ومحمدا ، كانا وبالا على جميع الثوار الغلاة . ومهما يكن من شىء ، فإن الحسن الصباح ، وجماعة النزارية ، انتهزوا فرصة الحروب الأهلية ، التى قامت بين أبناء السلطان ملكشاه ، وتقربوا من

---

(١) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 101.

(٢) وهو أحد كبار أصحاب أبى حنيفة وتلامذته ، كان عربى الأصل (١١٣ — ١٨٢) ، ولى القضاء للمهدى والهادى والرشيد .

(٣) هو محمد بن الحسن الشيبانى (١٣٢ — ١٨٩) كان ثريا ، على عكس صاحبه أبى يوسف .

السلطان محمود أولا ، ثم من السلطان بركياروق ثانيا . وأكثروا من الاغتيالات المنظمة ، كما أكثروا من فتح القلاع والحصون .

والواقع أن السلطان بركياروق ، مثّل مع النزارية أدوارا ثلاثة ، كان ، فى الدور الأول منها ، عدوا لدودا للنزارية ، حتى جرحوه وهو يحارب أخاه الصغير ، السلطان محمود بن والخاتون»[1] . وتودد إليهم فى الدور الثانى ، حتى امتلأ جيشه بهم . وعلى الرغم من هذا ، لم يكن أنصاره يأمنون على أنفسهم من غدر النزارية ، الأمر الذى يدل على أن أصدقاء النزارية وأعداءهم كانوا جميعا فى خوف دائم منهم [2] . وقد صدق دوسّو[3] حين يقول : كان للحسن الصباح أنصار كثيرون فى كل مكان ، وكان هؤلاء الأنصار خطرا على أعدائه ، كما كانوا خطرا على أصدقائه ، فالأعداء يخافون القتل على أيديهم من يوم لآخر ، والأصدقاء يخافون على أنفسهم كذلك من أعداء النزارية ، بل من النزارية أنفسهم .

ولا نستطيع أن ننكر أن النزارية أمنوا جانب بركياروق ، على ماذهب إليه ابن خلدون ، « وانتشروا فى معسكره ، وأغروا الناس ببدعتهم ، وتجاوزوا إلى التهديد عليها ، حتى خافهم أعيان العسكر . وصار بركياروق

---

(١) تاريخ السلاجقة . نشر براون . فى المجلة الأسيوية الملكية ، سنة ١٩٠٢ م ، ص ٩٠٥ .

(٢) D'Ohsson ; Hist. des Mongoles, vol. iii, p. 158

(٣) Ibid. vol. iii, p. 159

يصرفهم على أعدائه ، والناس يتهمونه بالميل إليهم [١] . وقد كان لهذا أثره فى زيادة نفوذ النزارية فى بلاد المشرق ، فامتلكوا القلاع الكثيرة ، إلا أن هذا التودد لم يدم طويلا . بل انتهى الصراع بين الأخوين بانتصار السلطان بركياروق ، فتفرغ بعد انتصاره هذا للنزارية ، وصب جام غضبه عليهم ، وانتصح بنصح مرشديه فى الفتك بهم ، قبل أن تدور عليه الدائرة منهم [٢] .

والحق أن السنيين انضموا إلى أعداء بركياروق ، وسلقوه بألسنة حداد ، ورموه باعتناق المذهب النزارى ؛ فلم يجد هذا السلطان بدا من الانتقام منهم ، ولا شك فى أنه أراد أن ينقذ سمعته الدينية ، لدى عامة المسلمين كذلك ، فبدأ الدور الثالث بعمله هذا . وقد أجاد الأصفهانى حين يقول : « وتعين على السلطان [بركياروق] أن يكاشفهم مدافعا ، لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد ، كما جرى على ملك كرمان ، فإن الرعية اتهموه بالميل إلى القوم فبطشوا به ، وأقاموا ملكا آخر مقامه [٣] .

وإذن كانت حرب بركياروق مع الباطنية النزارية حربا يقصد بها انتصار المذاهب السنية على مذهب النزارية ، وعلى أية حالة ، كان غرض بركياروق من الفتك بالنزارية العمل على جذب قلوب السنيين إليه ، وبخاصة من كان منهم يرميه بالإلحاد . أيد هذا ابن الجوزى حين قال : إن بركياروق

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٢٠ .

(٣) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٣ .

بعمله هذا «أزال الشكوك التى حامت حوله ، حتى حسم هذا الأمر[١]» .

ويصح أن نستنتج من انتقاض بركياروق على النزارية ـ أنصاره بالأمس ـ فى سنة ٤٩٤ هـ أمورا منها ، كثرة انضمام كبار السنيين إلى هذه الطائفة ، من هؤلاء صاحب «يزد»[٢] ، وابن مستحفظ «تكريت» ، ـ فى العراق ـ وكثير من قواد بركياروق ، الأمر الذى يدل على تغلغل النزاريين فى حكومته ، حتى أن أحد وزرائه مات مقتولا على أيدى جنوده السنيين ، لأنهم شكوا فى إخلاصه ، واتهموه بالميل إلى النزارية . وهذا يدل على أن تأثير النزاريين فى الناس كان عظيما ، ولا غرو فقد وضع الحسن الصباح مبادىء وطرقا مغرية ، يتسلط بها الدعاة على عقول الناس . وإذن فإن الحركة النزارية الصباحية كانت حركة فكرية سياسية ، تشتبك فيها حرب الأعصاب وحرب المبادىء والعواطف من جهة ، وحرب السيوف والخناجر من جهة أخرى .

ونلحظ كذلك أنه على الرغم من إشادة المؤرخين السنيين بأعمال السلطان بركياروق ضد النزارية ، فإن عدد المقتولين من هذه الطائفة على يديه كان صغيرا إذا قورن بعددهم الحقيق ، ويدلنا هذا على أن السلطان بركياروق لم يتمكن من استئصالهم . يقول أبو المحاسن[٣] فى حوادث سنة ٤٩٤ هـ : «قتل هذا السلطان خلقا من الباطنية ، وكانوا ثلثمائة ونيفا ، وكتب إلى

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٩٤ .

(٢) مدينة تتوسط نيسابور وشيراز وأصبهان انظر ياقوت .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (دار الكتب سنة ١٩٣٥ م) ، جـ ٥ ص ١٦٦ .

الخليفة العباسى بالقبض على من اتهم أنه منهم» . مما يؤكد أن العمل الذى قام به هذا السلطان ضد النزارية لم يكن حاسما .

ونعتقد أن بركياروق لو كان مخلصا حقا فى ثورته على حلفائه النزارية ، لأعلن عليهم الحرب ، وأرسل إليهم الجيوش تلو الجيوش ، واقتلعهم من قلاعهم . والذى فعله فقط هو محاولة إزالة خطرهم عن بلاده ومن بين رعاياه ، لأنه اعتبر بقاء النزارية بين السنيين خطرا على ملكه ، ونظر إليهم كما ننظر اليوم إلى الجواسيس الخطرين ، أو إلى من نسميهم « طابورا خامسا » ، فكأن الذى أملى عليه سياسته ضد النزارية ، إنما هو عاطفة الحكم وحب الرياسة ، لا عاطفة الدين والمذهب .

ومن الأمور التى نلاحظها أيضا فى هذا السبيل، أن الاتهام باعتناق هذا المذهب كان سبة ومهانة ، وكثيرا ما اتخذ وسيلة للتشفى والانتقام . يقول الأصفهانى[1] : « ولما عرفوا جد السلطان فى إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض ، وأحب وصمه بالإلحاد لسابق عداوة وبغض ، ووصمه باسم لم يمحه عنه غير السيف ، ولم يجد مبررا عن التزام الحيف ، وبقى فى هذه الاصطكاكات[2] والاصطدامات خلق كثير ، وجم غفير ، ولم يبق الأكابر فى دفع ما عرا رأى ولا تدبير » .

وهكذا كانت حكومة السلاجقة فى عهد السلطان بركياروق تنظر إلى

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق (مصر ١٩٠٠) ، ص ٦٣ .

(٢) اصطك : اصطك القوم بالسيوف : تضاربوا بها .

النزارية ، كما تنظر الحكومات الديمقراطية اليوم ، إلى معتنق المبادىء الفاشية والبلشفية مثلا ، وتلقى بأصحابها ومعتنقيها فى غياهب السجون ، والفرق بين ما تعمله الحكومات اليوم ، وما كانت تعمله الحكومات السلجوقية ، هو أن الفاشيين والبلاشفة فى البلاد الديمقراطية يلقى بهم فى غياهب السجون ، بحجة أنهم خطر على كيان الأمة التى ينتمون اليها ، أما النزارية فكان السلاطين السلاجقة يعتبرونهم خطرا على كيان الأمة ودينها معا ، ويعتبر القتل جزاء لهم ، لأن المبادىء الأولى مبادىء سياسية ، على حين تعتبر مبادىء النزارية مبادىء دينية وسياسية معا .

ونلاحظ أيضا أنه كان لهذه المذبحة على صغرها أثر كبير فى توجيه الدعوة النزارية ببلاد الشام ، فإن الداعى أبا إبراهيم الاسترابادى ـ أحد زعماء النزارية وأحد كبار موظفى السلاجقة ـ حين قتل سنة ٤٩٤ هـ فر أحد أقربائه إلى بلاد الشام ، وأخذ فى ترويج الدعوة النزارية هناك فكان لجهوده كبير الأثر فى نجاح النزارية بالشام . يقول ابن الأثير فيه : « وكتب بركياروق إلى بغداد بالقبض على أبى إبراهيم الأسدابادى الذى كان قد وصل اليها رسولا من بركياروق ، ليأخذ مال وزيره مؤيد الملك . وكان من أعيانهم ورؤسائهم (أى من أعيان النزارية) ، فأخذ وحبس . فلما أرادوا قتله ، قال : هبوا أنكم قتلتمونى ! أتقدرون على قتل من بالقلاع والمدن ؟ فقتل ، ولم يصل أحد عليه ، وألقى خارج السور . وكان له ولد كبير قتل بالعسكر معهم »[1] وفرّ ابن اخته إلى بلاد الشام ، فنظم الدعوة النزارية بها .

---

(١) ابن الأثير : الكامل . ج ١٠ ، ص ١٢٠ .

وقد أخذ بعض كبار الأمراء السنيين يقلد السلطان بركياروق فى الفتك بالنزارية ، حتى أن الأمير « جاولى سقاو » ، وكان واليا على البلاد الواقعة بين رامهرمز [١] وأرجان [٢] ، لما أدرك خطر النزارية ، بعد استيلائهم على الكثير من القلاع فى خوزستان وفارس ، وبعد قطعهم الطرق فى تلك البلاد ، عمل على التخلص منهم والفتك بهم . واحتال عليهم وأفنى منهم عددا غير قليل [٣] .

ولم يقف أتباع الحسن مكتوفى الأيدى إزاء ذلك العدوان السنى ، بل أخذوا يردون على تلك الأعمال العدوانية بما هو أشد منها ، فاستولى الكيابزرجميد ، كبير دعاتهم فى رودبار ، على إحدى القلاع القوية فى سنة ٤٩٥هـ ، ووضع السيف فى رقاب أهلها ، بعد أن رفضوا الدخول فى مذهب النزارية . ومن ثم أصبح مركز الكيابزرجميد فى رودبار وزميله المظفر فى خراسان ، من أخطر الأمور على دولة السلاجقة فى عهد السلطان بركياروق ، ومن وليه من السلاطين .

وكذلك انتقم النزارية لأنفسهم بقتل وزير السلطان بركياروق على أبواب أصفهان ، بين يدى السلطان ، وتحت سمعه وبصره [٤] . وليس هذا فقط ، بل فعلوا ما كان القرامطة يفعلونه من الفتك بالحاج ، ونهب أمتعتهم

---

(١) رامهرمز : انظر الصور .

(٢) أرجان « «

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١٠ ص ١٢١ .

فقد اجتمع فى سنة ٤٩٨هـ (١١٠٥ م) قفل الحاج مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد ، فوصلوا إلى جوار الرى ، فأتاهم الباطنية [النزارية] وقت السحر ، ووضعوا فيهم السيف ، وقتلوهم كيف شاءوا ، وغنموا أموالهم ودوابهم ، ولم يتركوا شيئا »[1] .

نستطيع أن نتبين من هذا كله أن النزارية فى عهد الصباح أضحوا قوة يخشى بأسها ، فأصبحوا كدولة وسط الدولة العباسية السنية ، وأضحوا فى زمن السلطان بركياروق (٤٨٧ - ٤٩٨ هـ) قوة مرهوبة الجانب ، عملها انتهاز الفرص ، والإفادة من الظروف السيئة التى غمرت الدول السنية التى تحيط بها ، كما نتبين أن قاعدتهم « آلموت » لم تتعرض فى عهد بركياروق للأخطار التى تعرضت لها فى حكم ملكشاه أو ابنه السلطان محمد مثلا .

(ب) صراع نزارية الحسن الصباح مع السلطان محمد $\frac{٤٩٨}{٥١١}$ هـ $\frac{١١٠٥}{١١١٨}$ م

كان السلطان محمد بن ملكشاه أشد على النزارية من أخيه السلطان بركياروق ، فلما ولى الملك فى سنة ٤٩٨ هـ ، جعل دأبه قصد الباطنية ، مدفوعا فى ذلك بعاطفة الانتقام منهم ، لانضمامهم إلى أخيه بركياروق عليه ، وتهديدهم ملكه ؛ فقد باتت قلعة « آلموت » تهدد خراسان ، وأضحت دار الدعوة ، فى أصفهان تهدد فارس . بل أصبحت مملكة السلاجقة مجالا حيويا للنزارية أنفسهم ، ينشرون فيها نفوذهم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان للعاطفة الدينية ، أو التظاهر بتلك العاطفة أثر كبير فى تحريك الهمم ضد النزارية فى عهد السلطان محمد ، الذى رغب فى جذب السنيين عامة

---

(١) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ١٤٧.

إليه، حتى لا يرمى بالتقرب إليهم، كما رمى أخوه بركياروق به من قبل، وليس هذا فقط، بل لقد اتضحت له خطورة هذه الطائفة، حين رأى رضوان ابن عمه تتش بن ألب أرسلان، صاحب حلب، يعتمد على النزارية، ويقيم لهم ببلاده دورا للدعوة، فأدرك السلطان محمد، خطورتهم على ملكه فى الشرق والغرب، واعتقد أنه بالقضاء عليهم فى فارس وخراسان، سوف يقضى عليهم فى بلاد الشام كذلك.

وكان يهم هذا السلطان القضاء على نزارية قلعة «شاه دز» المجاورة لحاضرة ملكه، أصفهان، وبخاصة بعد أن احتلها «كبير الدعاة» الثانى، أحمد ابن عبد الملك بن عطاش، وبعد أن احتل الكيابزرجميد قلعة قوية أخرى فى إقليم «رودبار». وبعد أن استقرت حكومة النزارية فى «آلموت» وقويت. وقد كان مشروع السلطان محمد يرمى إلى التخلص من قلعة «آلموت»، ومن قلعة «شاه دز» معا؛ لأنه بالقضاء على الحسن الصباح فى «آلموت»، وابن عطاش فى «شاه دز»، يقضى على الزعامة النزارية الممثلة فى شخصيهما.

١ — السلطان محمد وابن عطاش

ونستطيع أن نتبين من استيلاء ابن عطاش على قلعة «شاه دز»، براعة النزارية فى التحايل والدهاء، فإنه على الرغم من تظاهر كبير الدعاة ابن عطاش، بالتبرؤ من المذهب الإسماعيلى، عمل على جذب سكان القلعة إلى مذهبه بطريق سرية ملتوية، مما يدل على أنه إنما تظاهر بالتبرؤ من للنزارية تقية. وكان السلطان ملكشاه قد وضع خزائن ملكه بهذه القلعة، كما وضع

بها خزائن سلاحه ، وغلمان قصره ووصيفاته ، وجعل عليها حراسا من الديالمة . فتمكن أحمد بن عبد الملك بن عطاش من الدخول إلى القلعة ، كمدرس يعلم الفتيان بها . وكتاجر يبيع للفتيات بها ما يحتجنه . وقد اعتاد هذا الزعيم النزارى الثانى ، الاتصال بالحراس الديلم ، وإلقاء الدروس الدينية عليهم ، فعقدت بينه وبينهم أواصر المحبة . وأخذ عليهم العهود ، وأصبح بهذه الطريقة - على مضى الزمن - الحاكم المطاع فى القلعة ، فاستولى عليها ، ونهب ما بها .

ولم يكتف أحمد بن عبد الملك بن عطاش بذلك ، بل أنشأ عند باب مدينة أصفهان « دار دعوة » "Dawat Khana" ، حتى اعتنق كثير من أهل أصفهان المذهب الإسماعيلى ، وبلغ عددهم بها أكثر من ثلاثين ألف نسمة ، فقوى أحمد بن عبد الملك بهم ، وأخذ يغير على المسلمين السنيين ، كما أخذ الباطنية يخطفون الناس من الطرقات . وقد افتضح أمرهم ، ورأى السلطان محمد ضرورة الإنهاء عليهم . يقول ابن القلانسى[1] : إن أحمد بن عبد الملك « كان شديد البأس ، لا يسمع بأمير له صولة ، ولا عالم له منزلة ، إلا بعث إليه من يفتك به » .

ويظهر أن امتلاك أحمد بن عبد الملك قلعة « شاهدز » إنما حدث فى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، لأنه بقى بها اثنى عشر عاما ، حتى استردها منه السلطان محمد فى سنة ٥٠٠ هـ (١١٦٠ م) [2] يؤكد هذا ما ذكره

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ .

(٢) مما يدل على استغلال النزارية النزاع بين أبناء السلطان ملكشاه ، فقد انضموا إلى بركياروق ، فتقاضى هذا عنهم ، ثم استولوا على قلعة « شاه دز » على مرأى منه .

ابن الجوزى[١] فى قوله : « وكان ابن عطاش لما مات ملكشاه قد تحيَّل عليها وملكها ، وأقام بها اثنى عشرة سنة » .

بهذا كله ترى أن السلطان محمد بن ملكشاه كان مجبرا ، أمام قوة النزارية ، على أن يفتك برئيسهم فى « شاهدز » ، فقد نال المسلمين السنيين من هذه القلعة أذى كثير ، فقتل النزارية من رعاياه كثيرين ، واضطرت قرى السلطان محمد ـ المجاورة لها ـ أن تدفع الجزية لابن عطاش ، وتمادى النزارية ، وفرضوا على الناس ضرائب عدة ، فكان حتما على السلطان ، بعد أن صفا له الجو ، أن يدافع عن السنة ، وعن الرعية معا ، بإعلانه الحرب على « شاهدز » وعلى « آلموت » .

ولم يكن ذلك إلا لأنه قد « صار لابن عطاش عدد كثير وبأس شديد ، واستفحلت أموره بالقلعة ، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال ، وقتل من قدروا على قتله ، فقتلوا خلقا كثيرين لا يمكن إحصاؤهم ، وجعلوا على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ، ليكفوا عنها الأذى ، فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه ، والناس بأملاكهم ، وتمشى لهم الأمر بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق ومحمد ، فلما صفت السلطنة لمحمد ، ولم يبق له منازع ، لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم ، والانتصاف للمسلمين [السنيين] من جورهم وعسفهم »[٢] .

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ورقة ١٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٦٣ .

وفوق ذلك اجترأ نزارية هذه القلعة على قتل وزير السلطان سنجر ، شقيق السلطان محمد بن ملكشاه ، فرأى هذا أن ينتقم لكرامة أخيه منهم ، وأن يدفع غائلة النزارية عن السنيين ، وبعبارة أخرى اتفق السلطانان : سنجر ومحمد على البدء بنزارية قلعة « شاهدز » . يقول ابن الجوزى : « ويقال : إن الباطنية النزارية لما قتلوا فخر الملك وزير سنجر ، كتب سنجر إلى محمد يقول : إن هؤلاء لا يبقون على ولا عليك ، والواجب قلعهم عن الأرض وإبادتهم ؛ فسار إلى قلعة ابن عطاش وفعل ما فعل » (١).

وعلى أية حالة ، رأى السلطان محمد البدء بقلعة «شاه دز» . لأنها قريبة من أصفهان ، قاعدة ملكه ، ولأن ضررها على رعاياه السنيين كان بليغا حقا ، أو بالأحرى ، لأن الأذى بها أكثر من غيرها ، وهى متسلطة على سرير عسكره » (٢) .

ولما أدرك نزارية هذه القلعة ما اعتزمه السلطان محمد ، ملأ أنصارهم من الموظفين الحكوميين الجو شائعات ، نتج عنها تأخير سير الحملات إليها ، فأظهروا أن ثورة اندلعت ببغداد ، وأخرى بخراسان ، ولكن السلطان محمدا ، خرج بنفسه إلى قلعة «شاه دز» فحاصرهم - على ما يقول ابن الأثير - فى سادس شعبان سنة خمسمائة (١١٠٧ م) ، « وكان قد عزم على الخروج أول رجب ، فساء ذلك من يتعصب لهم [للنزارية] من العسكر ، فأرجفوا أن قليج أرسلان بن سليمان ، ورد ببغداد وامتلكها ، وافتعلوا فى ذلك مكاتبات »

---

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ورقة ١٤ .

(٣) العينى : عقد الجمان ، ج ٢٠ ورقة ٦١٢ .

ثم أظهروا أن خللا قد تجدد بخراسان ، فتوقف السلطان لتحقيق الأمر ، فلما ظهر بطلانه ، عزم عزيمة مثله ، فقصد حربهم » (١).

ويتضح اهتمام السلطان محمد بحرب ابن عطاش، من أنه كان على رأس الجيوش المحاربة، وأنه صعد بنفسه جبلا مقابلا لقلعة «شاه دز» التى اعتصم بها النزارية ، وأمر بإحكام حصارها ، حتى لا يستطيع ابن عطاش ومن معه الإفلات منها ، كما نظم القتال بطريقة فعالة تضمن له النجاح ، وجعله بالتناوب بين أمرائه، وقد انضم إلى جيوشه ألوف من سكان تلك النواحى - نواحى أصبهان - ممن يرغبون فى الانتقام من النزارية ، حتى أنه «اجتمع له من أصبهان وسوادها ، لحربهم ، الأمم العظيمة ، المذحول (٢) التى يطالبونهم بها » . ويظهر أن هذه الجيوش كانت من الكثرة بحيث قال فيها ابن القلانسى (٣) : «وتوجه [السلطان محمد] إليها فى عساكره الدثرة (٤)، المتناهية فى القوة والكثرة » .

وقد بذل نزارية ابن عطاش أرواحهم رخيصة فى الدفاع عن قلعتهم، ولما قلت مؤونتهم وأوشكت على النفاد ، سلكوا مسالك شتى، للحصول على الذخيرة ، وإطالة أمد الحرب ، فكانوا يرسلون جماعات منهم لنهب جيوش السلطان على غرة ، كى يملئوا بطونهم ، ويطيلوا أمد الحصار

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٦١ .

(٢) الذحول : الأخذ بالثأر .

(٣) ذيل تاريخ دمشق (بيروت سنة ١٩٠٨ م) ، ص ١٥١ .

(٤) الدثرة : الكثيفة .

دون التسليم ، كما لجئوا إلى التظاهر بالإسلام ، واعتناق مبادى السنة ، وطلبوا من السلطان محمد أن يعرض أمرهم على فقهاء السنيين ، وإليك نص ما عرضوه عليه : « مايقول السادة الفقهاء ، أئمة الدين ، فى قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله ، وأن ما جاء به محمد ، عليه الصلاة والسلام ، حق وصدق ، وإنما يخالفون فى الإمام . أيجوز للسلطان مساعدتهم ومهادنتهم ومواعدتهم[1] ، وأن يقبل طاعتهم ؟[2] » .

وكاد النزارية أن ينجحوا فى هذه السبيل ، لأن كثيرا من الفقهاء السنيين أفتوا بجواز ذلك ، إلا واحدا امتنع وقال : « يجب قتلهم . ولا ينفعهم اللفظ بالشهادتين ، وحجته فى ذلك أن النزارية يطيعون إمامهم إذا أباح لهم ما حرمته الشريعة الغراء » . فأخفقت محاولتهم أمام هذا الإصرار السنى . ونحن لا نستبعد أن يكون للنزارية أنصار فى صفوف رجال السلطان السلجوقى ، حتى من بين الفقهاء أنفسهم ، لأنه على الرغم من إقناع هذا الفقيه السنى زملاءه الفقهاء ، طال أمد المناظرة .

على أن النزارية لجئوا إلى مماطلة أخرى ، لأنهم كانوا يعتمدون على عنصر الزمن ، الذى كان فى صالحهم وحدهم . فطلبوا من السلطان محمد أن يرسل إليهم الفقهاء ليناظروهم فى أصول دينهم وعقائدهم . فلما صعد الفقهاء إلى قلعتهم ، لم يتفقوا على شىء . وقد أدرك السلطان محمد ما يرمى إليه النزارية من إطالة أمد الحرب ، كى يلعب أنصارهم بأصابعهم فى الجيش السلطانى ، فشدد الحصار عليهم .

---

(١) هكذا ورد فى الذهبى : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ورقة ٥١٧ .

(٢) المصدر نفسه .

وقد لجأ النزارية إلى حيلة جديدة أخرى ، فحاولوا ترحيل أكبر عدد ممكن منهم من قلعة « شاه دز » ، وطلبوا من السلطان محمد أن يسلم إليهم قلعة أخرى ، يحتمون بها من العامة السنيين ، ولما أجيبوا إلى ذلك ، طلبوا من السلطان أن يمدهم ببعض إمدادات يعتمدون عليها فى أثناء ارتحالهم عن هذه القلعة الأولى ، فكان « قصدهم المطاولة ، انتظارا لفتق ينفتق ، أو حادث يتجدد »[١] على أن النزارية لم ينفذوا شروط الاتفاق ، « وأقاموا تلك المدة يجمعون ما يقدرون عليه من الأطعمة ، ووثبوا على بعض الأمراء وقتلوه [٢] » .

اضطر السلطان محمد إلى تخريب القلعة التى قصدوا الذهاب إليها ، وحينئذ عرضوا على السلطان الذهاب لبعض قلاعهم الأخرى ، على أن يبقى بعض منهم بقلعة « شاه دز » ، إلى أن يتم وصول الأولين إلى تلك القلاع النزارية ، وكان من تبقى منهم فى قلعة « شاه دز » ، وعلى رأسهم كبير الدعاة أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، قد اتخذوا لهم فى هذه القلعة مكانا تحصنوا فيه ، وصفه السلطان محمد بقوله : « واعتصم ابن عطاش بقلة[٣] أخرى ، تسمى « دالان » مع نخب أصحابه من المقاتلة . وهذه القلة من أمنع المواقع من القلعة وأحصنها ، وأوعرها مسلكا وأحزنها [٤] ، فقد نقل إليها ما كان بقى لهم من الميرة وسائر ما يستظهر به من السلاح والذخيرة » [٥] .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٦٢ .
(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١١٦ .
(٣) : القلة = القمة .
(٤) أكثرها ارتفاعا وانخفاضا .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت سنة ١٩٠٩) ، ص ١٥٤ انظر الملحق رقم ١ .

والحق أن ابن عطاش لجأ إلى تلك القمة ، بعد أن نصحه بذلك جواسيسه فى قصر السلطان محمد ، وعلى رأسهم الوزير ـ سعد الملك ـ يتضح هذا كله من رسالة السلطان محمد إلى الخليفة العباسى المستظهر ، وفيها يقول : « وأمامنا من المستخدمين وأصحاب الدواوين نفر تصغى اليهم أفئدتهم ، فيما كانوا عليه من مخالفة ، يتوصلون بمكرهم من نقض ما يبرم وتأخير ما تقدم ، ويوهمون أنها من النصائح التى تقبل وتلزم ، حتى يتطاول دون ذلك الآن (١) ، وبان من القوم المعتقد ، واتضح لنا من صائب التدبير ما يعتمد » ، وقد أوضحت الرسالة فى مكان آخر ، انتقام السلطان من صنائع الحسن الصباح ، وابن عطاش ، فقالت : « ثم انتقمنا من المستخدمين الغادرين بالملك والدين ، حتى ساقهم الحين المتاح إلى حين(٢) فلم يفلت منهم صاحب ولا مصحوب ، إن الشقاء على الأشقين مصبوب » (٣) .

أما انضمام وزير السلطان محمد ، المدعو سعد الملك ، إلى جماعة النزارية ، فيتضح من اتهام كبار أصفهان له بذلك ، وإعراض السلطان عن تصديقهم أول الأمر ، غير أنه تأكد من صحة هذا الاتهام بعد حين ، فعلم أن هذا الوزير كان يراسل ابن عطاش فى محنته الأخيرة ، فقد أرسل الرئيس النزارى إليه يقول : لم يعد لدينا ما يكفينا من المؤن ، وقد كلت

---

(١) الآن : الزمان .

(٢) الحين : النهاية .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت سنة ١٩٠٩ م) ، ص ١٥٤ انظر ملحق (١) .

سواعد رجالنا ، ونحن راغبون فى تسليم القلعة » . فطلب منه الوزير الصبر أسبوعا واحدا ، حتى يقضى فيه على ذلك «الكلب» ـ أى السلطان محمد ـ ولهذا تآمر سعد الملك مع قاصد ، أعتاد أن يقصد السلطان كل شهر ، ومنحه ألف دينار ، فى مقابل سم السلطان . ولم يكن الوزير وحده هو المتآمر على قتل السلطان محمد ، بل كان حاجبه على علم بتلك المؤامرة ، فأفشى سرها إلى زوجته ، وهذه أفشتها إلى من أخبر بها السلطان . فلما تحقق هذا من صحة المؤامرة ، فتك بالوزير سعد الملك . وكان من أثر الفتك بالوزير الخائن ، أن سلم ابن عطاش القلعة بعد قتله بيومين اثنين(١).

ومهما يكن من أمر فإن الهجوم على النزارية كان شديداً . وقد برهن ابن عطاش على مقدرة حربية نادرة المثال ، وقوة أعصاب حديدية ؛ إذ لم يكن يحارب جحافل السلطان محمد إلا بثمانين رجلا ، وموه على أعدائه ، فأقام أسلحة على هيئة الرجال فى بعض المواقع ، ودافع عن البعض الآخر ، وكان من أثر استيلاء السلاجقة على تلك القلعة ، والقبض على أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، وعلى ولديه ، والتمثيل بهما فى شوارع مدينة أصفهان ، ثم قتلهما ، وإرسال رأسيهما إلى بغداد ، زعيمة السنيين حينئذ . وبقتله أيضا قضى السلطان محمد على عدو خطير ، طالما أنكى فى السنيين . وكانت قلعته ، « شاه دز » ، شوكة فى ظهر السلاجقة وسيادتهم ، وبهذا تمكن السلطان محمد من أن يوجه كل قواه ، بعد ذلك ، إلى الزعيم

---

(١) تاريخ السلاجقة . (مخطوط بباريس ـ ترجمة براون فى المجلة الآسيوية الملكية سنة ١٩٠٢) ، ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

الثانى - الحسن الصباح - بقلعته « آلموت » ، فى جبال « إلبورز » ، جنوبى بحر قزوين .

على أن القضاء على ابن عطاش أفاد الحسن الصباح نفسه كثيراً ، لأن زعامته كانت محدودة فى حياة ابن عطاش ؛ وبهذا نرى أن الحسن الصباح لم يجمع السلطة كاملة فى يده إلا بعد وفاة ابن عطاش [١] ، ولا غرو ، فقد كان ابن استاذه ، كما كان موضع احترام النزارية جميعا .

(٢) السلطان محمد والحسن الصباح

بعد قضاء السلطان محمد على ابن عطاش النزارى ، فى سنة ٥٠٠ هـ ، وجه جيوشه جميعها إلى قلعة « آلموت » ، وقوّد عليها وزيره أبا نصر أحمد بن نظام الملك ، أكبر عدو للنزارية ، فى ذلك الحين ؛ فكان اهتمامه بآلموت كاهتمامه « بشاه دز » ، كما كانت كراهيته للحسن الصباح أكثر من كراهيته لابن عطاش . ويهمل بعض المؤرخين ذكر المجهودات التى بذلها السلطان محمد ضد النزارية فى « آلموت » ، فور قضائه على ابن عطاش ، ولا يذكرون عنها شيئا إلا فى سنة ٥٠٥ هـ .

ولا مراء فى أن السلطان محمد ، لما علم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم ، وإخراب ديارهم ، وملك حصونهم وقلاعهم ، جعل قصدهم دأبه [٢] . وإن فى إرساله وزيره أبا نصر بن نظام الملك ، استثارة لما فى نفس ذلك الوزير ، من حقد دفين على النزارية ، الذين قتلوا أباه ، نظام الملك ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٣ ص ٢٨٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٩ .

بالأمس ، فكان اختيار السلطان محمد بن ملكشاه هذا الوزير دون غيره ، دليلا على ما عزم عليه من استئصال شأفة النزارية .

ويختلف المؤرخون فى تحقيق الوقت الذى أرسلت فيه تلك الحملة الأولى ضد «آلموت»؛ فيرى ابن القلانسى أنها كانت فى ٥٠١ هـ (١١٠٧م)، ويرى ابن الفرات وابن الأثير ، أنها فى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) . فيقول ابن القلانسى[١] فى حوادث سنة ٥٠١ هـ : إن الوزير «أظفره الله بهم ، ونصره عليهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخرب منازلهم وقلاعهم» . ويقول ابن الفرات [٢] فى حوادث سنة ٥٠٣ هـ : إن حصار الوزير قلعة «آلموت» كان شديدا ، حتى كادت أن تقع فى قبضة يده ، لولا «هجوم الشتاء عليهم ، وسقوط الثلوج ، فاقتضى الرأى العود عنه ، وعن حصار آلموت ولم يبلغوا منه غرضا» .

وقد عمل الحسن الصباح على الانتقام من وزير السلطان محمد ، فشيع وراءه جماعة من فداويته ، لحقوه فى بغداد، حين دخل مع السلطان محمد ، فأصابوه بجروح، شفى منها بعد علاج طويل، ومجهود طبى متصل . ويدلنا على خطر تآمر الحسن ضد الوزير السنى أنهم «أخذوا الباطنى، وسقى الخمر بغير اختياره ، فلما سكر، سئل عن أصحابه . فأقر على جماعة بمسجد المأمونية[٣]».

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط مصور) ، ج ١ ورقة ٣٥ ، ٣٦

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨١ ، والمأمونية : محلة كبيرة فى بغداد . ويدلك هذا كله على مدى تأثير النزارية فى الدولة الإسلامية حتى فى بغداد ذاتها .

وإذا كانت حملة السلطان محمد الأولى على «آلموت» قد أخفقت، فقد أعد فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م)، جيشا آخر برياسة قائده الكبير «أنوشتكين شيركير»، الذى كان مربيا لابنه الأمير طغرلبك. وكان قبلا من أنصار السلطان بركياروق، فلما أدرك ميله إلى النزارية تبرأ منه، وقصد إلى السلطان محمد، فعظمت منزلته لديه. وصفه الأصفهانى بقوله (١): «كان شهما شديدا، وسهما سديداً، وسما زعافا على العدو، وموتا زؤاما على أهل الإلحاد والعتو».

ويرى ميرخُنْد أن الحملات التى وجهها السلطان محمد ضد النزارية فى «آلموت»، منذ سنة ٥٠٠ هـ حتى سنة ٥١١ هـ (١١١٧م)، كانت بقيادة الوزير أبى نصر بن نظام الملك، وهذا عكس ما يراه ابن الفرات وغيره. ويظهر أن السلطان محمد، حين أدرك ضعف هجوم هذا الوزير على النزارية، قرر استئصال شأفتهم، بالاستعانة بقائد ذى خبرة فى جميع الفنون الحربية، متشرب بكره النزارية.

ومهما يكن من أمر، فإنه عهد إلى أنشتكين بفتح جميع بلاد «رودبار»، جنوبى بحر قزوين، وضمها إلى ابنه طغرلبك. وكان دأبه تخريب قلاعهم، وإتلاف مزروعاتهم، وإفناء رجالهم، كما كانت غايته النهائية تتركز فى الاستيلاء على قلعة «آلموت» (٢)، وجعلها أثرا بعد عين، ولذلك عمل على استلاب كل ما يحيط بها من قلاع الدعوة، غير أنه كان يرسل سكان تلك القلاع إلى قلعة «آلموت».

وقد يعتقد المرء أن ما فعله القائد الكبير شيركير من أكبر الأخطاء الحربية،

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٠٧.

(٢) Defremery ; Nouvelles Recherches (J. A. 1848) p. 34

لأنه كان يعمل على تقوية جيوش «آلموت». غير أن ذلك القول ليس صحيحا فى جملته، لأن شيركير إذا ما أحكم الحصار حول «آلموت» فإن ذلك العدد الكبير سوف يصبح عالة على الحسن الصباح، وسوف يعجز عن تموينهم. وسترينا الحوادث صحة هذا الرأى، فقد كان حصار «آلموت» وإماتة من بها غايته، ولذلك بنى حولها المساكن، وجعل الحرب ضدها مناوبة بين قواده، وأخذت الإمدادات تتدفق عليه، الأمر الذى يدل على اهتمام القائد والسلطان معا، برب النزارية وإبادتهم.

يصف ابن الفرات (١) مهارة القائد شيركير بقوله: «وكان هو صاحب العزيمة والبصيرة فى قتالهم: من جودة رأى وشجاعة. فبنى عليها [أى على آلموت] مساكن يسكنها هو ومن معه، وعين لكل طائفة من الأمراء شهورا يقيمونها، وكانوا يغيبون ويحضرون، وهو ملازم الحصار». وقد نجحت خطته، حتى ضاق الأمر بالحسن الصباح ومن معه، وقلت الأقوات لديهم. وعلى الرغم من دقة الحسن الصباح ومهارته الفائقة فى تموين نزارية «آلموت»، ومن لجأ من أشياعه إليها، إلا أنه رأى ألا طاقة له بذلك الحصار، الذى أحكمت حلقاته حوله.

وقد لجأ الحسن فى تخفيف ضغط القائد شيركير عليه إلى طريقة بارعة، فأخرج النساء والأطفال مستأمنين، وطلبوا السماح لهن ولرجالهن بالخروج من قلعة «آلموت». ولما كان هم شيركير ينحصر فى إماتة النزارية

---

(١) تاريخ الدول والملوك، جـ ١ ورقة ١٠٩.

فى «آلموت» جوعا ، فقد رفض ما عرض عليه ، وأعادهن إلى القلعة ، حتى يموت الجميع موتا بطيئا. «وكان ابن الصباح يجرى لكل واحد منهم فى اليوم رغيفا وثلاث جوزات»[١] ، مما يدل على قدرة الحسن الصباح الحربية ، واتقانه فنون تموين الجنود ، ويدل فى الوقت نفسه على قلة ما عند النزارية من مواد لتموين أنصارهم .

وإذا كان الوزير سعد الملك من أكبر أعوان ابن عطاش ، فإن الوزير الدركزينى[٢] ، الذى خلفه فى الوزارة ، كان من أكبر أنصار الحسن الصباح ، فلم يكن يوافق السلطان ، أو قائده شيركير ، على الاستمرار فى حصار «آلموت» ، كما كان يكره القائد شيركير نفسه ، وقد ساعده الحظ بموت السلطان محمد سنة ٥١١ هـ ، وتولية ابنه السلطان محمود ، لا ابنه السلطان طغرلبك ، ربيب شيركير . فضاعف هذا الوزير جهده فى زحزحة جيش شيركير عن «آلموت» ، والقضاء على ذلك القائد بعد ذلك .

نعم! أراد الوزير الدركزينى إبعاد القائد شيركير عن «آلموت» لأمرين: أولهما ، أنه كان على مذهب النزارية [٣] ، وثانيهما أنه وعد الحسن الصباح بذلك ، فرأى أن يبر بوعده . ولا يستبعد هذا على الدركزينى ، لأنه بهذا التصرف يستطيع أن يستغل خناجر النزارية ضد أعدائه ومنافسيه ، ويكتفى شرهم فى الوقت نفسه . وقد صدق الأصفهانى[٤] حين قال : « إن

---

(١) ابن الفرات : الدول والملوك ، جـ ١ ورقة ١٠٩ .

(٢) نسبة إلى دركزين ، [وتشتهر بإلحاد أهلها لأنهم كانوا من المزدكية الخرمية ، وشرهم شائع فى البرية] ، الأصفهانى ص ١١٤ .

(٣) Defremery : Nouvelles Recherches (J. A. 1849) p. 35

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٢ .

العساكر التى كانت مشغولة بحصار «آلموت»، وقد شارفت فتحها، وشاهدت نجحها ، شرع الدركزينى فى تفريقها ، بميله إلى الملاحدة ، ووعده لهم بالمساعدة » .

ولقد أوحى الدركزينى إلى جماعة النزارية فى «آلموت»، بموت السلطان محمد، قبل أن تعرف الجيوش المحاصرة لهم ذلك، وأكد ابن الفرات علاقة الوزير بالنزارية فى قوله: «وأشار وزير السوء الدركزينى بترحيل العساكر عنهم، ميلا منه إلى مذهب الباطنية ، وحبا منه لاعتقاد الإسماعيلية [١] » ويقول عنه الاصفهانى [٢] : « دخل فى دست الملك ، ففتك وهتك ، واستباح الدماء وسفك ، وشرع المنكرات ، وأنكر المشروعات ، وعادى الكرام ، وبدد النظام ، وظاهر الباطنية ، وأظهر السنة الجاهلية ، وشرع فى الفتك بالأحرار ، والهتك بالأستار » .

ويبدو أن الدركزينى عجز عن نوال بغيته فى رفع الحصار عن «آلموت» فى حياة السلطان محمد ، ولكنه تمكن من تحقيق هذه الأمنية عقب وفاته ، لأن الذى تولى الملك بعد السلطان محمد ، ابنه محمود ، دون ابنه طغرلبك ، وبيبب شيركير ، على ما تقدم . فانتهز الدركزينى ذلك ، ورمى شيركير القائد باتهامات كثيرة ، وتمكن بهذا كله من القبض عليه ، وعلى ابنه « شرف الدولة » ، ثم قتلهما بعد حين .

وبذلك نستطيع القول بأن « دبلوماسية » الحسن الصباح وسفاراته فى دواوين السلاجقة ، كان لها الأثر الفعال فى نجاح الدعوة النزارية التى

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ ورقة ١٦ .

(٢) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٣١ .

صاغها بيديه ؛ إذ بفضل هذا كله ، أمر السلطان الجديد ، بفض الحصار عن قلعة « آلموت » ، ثم القبض على القائد « شيركير » . ويرينا هذا بطلان ما ذهب إليه جمهرة المؤرخين من أن الجيوش التى كانت تحاصر « آلموت » ، حين سمعت بموت السلطان محمد ، عادت أدراجها من غير نظام .

والحق أن الأوامر التى صدرت إلى هذه الجيوش إنما أصدرها الوزير ، الدركزينى ، والسلطان الجديد - محمود بن محمد بن ملكشاه - ، دون أخذ رأى القائد شيركير ، فحاول هذا أن يبين لمن معه من القواد خطورة التقهقر الفجائى ، وحتّم عليهم وجوب الانتظار مدة من الزمان ، يستطيعون خلالها ترحيل مؤنهم وذخائرهم ، كيلا تقع فريسة فى يد العدو . وقد ذهب ابن الأثير[1] إلى القول بأن شيركير فوجىء مفاجأة تامة برحيل جيوشه دون أخذ رأيه فيقول : إن هذا القائد قال لمن معه : « إن رحلنا عنهم وشاع الأمر ، نزلوا إلينا ، وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر ، والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها ، وإن لم يكن المقام ، فلابد من مقام ثلاثة أيام ، حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددناه ، ونحرق ما نعجز عن حمله ، لئلا يأخذه العدو » .

ولكن « الدبلوماسية » التى أمرت الجيوش بالارتداد ، تمكنت من التفرقة بين آراء القواد ، إذ على الرغم من الجهود التى بذلوها ، والعهود التى أخذوها على أنفسهم بالبقاء ، حسبما أشار القائد شيركير عليهم ، « رحلوا بغير ترتيب ، ولم يبق غير هذا الأمير ، ونزل إليه الباطنية من قلعة « آلموت » ، فدافعهم وقاتلهم ، فقتلوا من العسكر خلقا كثيرا . وحمى الأمير

(١) الكامل : ج ١٠ ص ١٩٩ .

شيركير من تخلف من سوقة العسكر وأتباعه ، ولحق بالعسكر »[١] .

وقد نتساءل عن السر الحقيقى فى ذلك التقهقر : فهل كان معنى هذا إقرار السلاجقة بعجز جيوشهم الجرارة أمام خناجر الفداوية والنزارية ؟ إن صح ذلك الافتراض ، دل على مدى قوة النزارية ، وعجز السلاجقة . أم أن ذلك يرجع إلى خيانة الوزير الدركزينى وحده؟ قد يكون ذلك صحيحا، خصوصا بعد أن عرفنا كيف رغب هذا الوزير فى التودد إلى النزارية ، ليستغل خناجرهم ضد أعدائه ، ولكن هذه الخيانة لا يصح أن تكون السبب الأوحد فى ذلك التراجع المخزى. والذى يظهر لنا - فوق ما تقدم - أن هذا الوزير أدخل فى روع السلطان الجديد أن الجيش الذى يحاصر «آلموت» قد يستخدم ضده ، ومن الواجب تقهقره ، حتى لا يستغله القائد شيركير لصالح ربيبه وولى نعمته ، طغرلبك بن السلطان محمد .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل قبض القواد على هذا القائد المخلص، بأمر من السلطان محمود نفسه، أو بعبارة أخرى ، « لما لحق الأمير شيركير بالعسكر ، أظهر الأمراء الذين كانوا معه أن كتب السلطان محمود وردت عليهم بالقبض عليه »[٢] .

وأما نهاية القائد شيركير، فقد صاغها بأيديهم أنصار الدعوة النزارية من موظفى القصر السلطانى ، حيث تمكن الدركزينى من إيغار قلب السلطان محمود عليه ، فأمر بقتله ، وبعمله هذا ترك الدولة السلجوقية عرضة لخناجر الفداوية، يسلطونها على من يشاءون من الوزراء والأمراء.

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط مصور) ، ج ٢ ورقة ١٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ورقة ١٧ .

يصف الأصفهانى[١] خيانة الوزير الدركزينى ، وموقفه من القائد شيركير ، وعلاقته الطيبة بالنزارية فى قوله : «وكان سبب ميل الباطنية إلى الدركزينى أن الأمير شيركير ـ رحمه الله ـ كان مشتغلا بحصار قلعة «آلموت» . . . فلما توفى السلطان محمد ، وتولى ابنه محمود ، وتمكن الدركزينى من الدولة ، أعمل الحيلة فى استدعاء شيركير من القلعة ، ثم لم يزل يدقق الاحتيال ، حتى جعل لشيركير عند السلطان ذنوبا اختلقها ، ومساوىء لفقها ، حتى اعتقل ذلك الأمير مع ولده شرف الدولة . ولم يزل يطلب غرة[٢] السلطان فى أمرهما حالتى سكره وصحوه ، حتى أخذ رخصته فى سفك دمهما الحرام ، وأذهب بقتلهما قوة الإسلام ، واتخذ بذلك عند ذوى الإلحاد يدا ، واستكثر له من أعوانهم مددا» .

وأما نتائج تلك المعركة المحتدمة بين التشيع والسنية Shiism&Sunnism فتتلخص فى أن سيادة الحسن الصباح ودسائسه بين السنيين كان لها من الأثر الطيب ما يعادل موت السلطان محمد . وأن الدعوة النزارية خرجت من تلك الجولة ظافرة . على عكس ما نالها على يد ابن عطاش ، فكان هذا النجاح عاملا هاما فى زيادة قوة الحسن وجماعته فى المشرق والمغرب[٣] ، هذا إلى الأثر المادى الكبير ، الذى ربحه النزارية ، فقد استولوا على جميع مؤن الجيش وذخيرته ، حيث «نقلوا إلى القلعة من العدد الكثيرة ، والأزواد

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٣٣ .

(٢) الغرة : الطلعة .

(٣) المقصود بالمشرق : فارس وخراسان ، أما المغرب هنا فيقصد به بلاد الشام .

والميرة [١] . ما تزيد قيمته على مائتى ألف دينار ، [٢] وما أعظمها فى فى ذلك الزمن السحيق !

ولا ننس أنه قد أصبح للنزارية فى ديوان السلاجقة رئيس ، بل رؤساء على مذهبهم ؛ فهذا الدركزينى يجذب إليه السلطان الجديد ـ محمود ـ ويؤثر كثيرا فى نفوذ عمه السلطان سنجر بن ملكشاه ، حتى ليكاد هذا السلطان يمتنع عن حرب النزارية ، وإذا أصبح الوزير والسلطان على هوى النزارية أفرخت دعوتهم ، وآتت أكلها مرتين .

كما لا ننس أن الدولة السلجوقية السنية ، فقـــدت قائدا من خيرة قوادها ، الذين كانوا يتحمسون ضد النزارية . لكل هذه الأسباب قوى مركز النزارية ، وامتد نفوذهم شرقا وغربا ، كما أنه بموت السلطان محمد سنة ٥١١ . وتخلص النزارية من رجل كان القضاء عليهم دأبه ، واستئصال شأفتهم مقصده ، [٣] ، حتى كان أهم ما رثاه الشعراء به منصبا على جهوده ضد الحسن الصباح ونزاريته . ويتشكك فوق همر فى موت السلطان محمد ، ويحاول أن يرمى النزارية بسمه ، معتمدا فى ذلك ، على أن هؤلاء القوم ، كانوا قد برعوا فى استعمال السم ، براعتهم فى استعمال الخنجر ، [٤] .

ومما لاشك فيه أن زعامة «آلموت» على جميع قلاع الدعوة الإسماعيلية ، إنما تقررت منذذلك اليوم الذى ارتدت فيه جيوش السلاجقة عنها ، فى سنة

---

(١) الميرة : الطعام .

(٢) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١١٣ .

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط بدار الكتب) ، ج ١ ورقة ٣٩

(٤) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 112

٥١١ هـ (١١١٨م)، فأصبحت القاعدة الرئيسية التي تتركز فيها قوتهم، ويقيم بها رئيسهم الأكبر. إذ لو قدر «لآلموت» ما قدر «لشاهدز»، لنالت إحدى قلاع الدعوة الأخرى، شرف الزعامة واستقرار الرئيس الأكبر بها[١].

وقد قام النزارية بسلسلة عنيفة من الاضطهادات ضد السنيين، فقتلوا فخر الملك، أبا المظفر، بن نظام الملك، وكان وزيرا للسلطان سنجر، انتقم النزارية منه في سنة ٥١١ هـ، لأنه كان حربا عليهم، في عهد السلطان بركياروق (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ)، ولأنه نشر الإشاعات الكاذبة عن انضمام السنيين إليهم، مما آلم الصباح، وكذلك حاول النزارية قتل وزير السلطان محمد، ويسمى ضياء الملك، أحمد بن نظام الملك، وجرحوه جرحا بليغا[٢]. وأشاعوا الذعر بين العلماء الشافعية خاصة، فكان لهذا كله أثر في نشر الرعب بين القواد والأمراء والعلماء والرعية.

(ح) صراع الحسن الصباح مع السلطان سنجر وابن أخيه محمود:

ولي السلطان سنجر زعامة العالم السني، بعد وفاة أخيه السلطان محمد في سنة ٥١١ هـ، وكان شديد الحزن على أخيه، كما كان معجبا بأعماله ضد النزارية، ولذلك «أمر الخطباء أن يذكروا السلطان محمد بمحاسن أعماله في قتال الباطنية»[٣]. ولما كان النزارية قد قتلوا وزيره فخر الملك — فقد كان من المنتظر أن يكون موقفه من النزارية أكثر حزما من موقف

---

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان (مخطوط بدار الكتب)، ج ٨ ورقة ١٤.

(٢) العيني: عقد الجمان (مخطوط بدار الكتب)، ج ٢٠ ورقة ٦١٨.

(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج ٣ ورقة ١٨

أخيه ، محمد ، غير أنه ، نظرا للحروب الأهلية التى اندلعت بينه وبين ابن أخيه السلطان محمود بن محمد ، ونظرا لخوفه الشخصى من خناجر الفداوية، وحبه الانتقام من أعدائه بهذه الخناجر نفسها ، نظرا لهذا كله لم يقم بما كانت توجبه عليه الزعامة الإسلامية السنية ، التى جلس على عرشها ؛ فكان مترددا فى سياسته مع النزارية ، يحاربهم تارة ، ويتفق معهم ويتملقهم تارات أخرى .

ومن حسن حظ النزارية، أن أصبح السلطان محمود بن السلطان محمد ألعوبة فى يد الوزير الدركزينى ، الذى كون له جماعة من أنصاره الباطنية النزارية، كان عملهم أن يطردوا من لا يدين بمذهبهم فى الإخلاص للصباح ، من الديوان السلجوقى . وكان أول عمل قامت به هذه الجماعة ، زحزحة جيش شيركير عن قلعة «آلموت» ، كما رأينا ، ثم اتخاذ خناجر النزارية وسيلة للتشفى ، والتخلص من أعدائهم .

يصف ابن الفرات(١) تلك الجماعة الموالية للنزارية بقوله : «فأبطلت الحقوق ، وعطلت الحدود ، وجاوزت هذه الجماعة الحال ، ثم إنهم قالوا : إن مماليك السلطان لا يطيبون نفسا بطاعتنا ، ولا يجيبون إلى موافقتنا . فأخذوا فى إعمال الحيلة فى تشتيت شملهم، وتفريق جماعتهم ، حتى صار كل واحد إلى جهة ، وختموا ذلك بأن رحّلوا العساكر التى كانت محاصرة «لآلموت» ، وقد شارفت أخذها ، وقاربت فتحها» .

ويقول فى موضع آخر عن الدركزينى : «وشرع فى ارتكاب الأمور

---

(١) تاريخ الدول والملوك ، جـ ٢ ورقة ١٦ .

المحظورة، وكشف الحرم المستورة ، وقد صار بينه وبين الباطنية أمور ، وانتمى إلى مذهبهم ليبلغ مراده من أضداده » (١) . وقد شعر النزارية بقوتهم بعد ذلك ، فأحرقوا مسجد أصفهان ، وهو من أعظم الجوامع وأحسنها ، أحرقه قوم من الباطنية [النزارية] ليلا » (٢)

غير أن سياسة السلطان سنجر مع الحسن الصباح قد بدأت باتخاذ وسائل القمع هذه ، أو بالحرى ، عمل هذا السلطان على الاستمرار فى سياسة أخيه محمد مع النزارية . فحاول حصار قلعة «آلموت» ، وشدد النكير عليها، ولقد حاول الحسن الصباح أن يثنى السلطان سنجر عن عزمه مرات عدة ، فلما عجز عن إدراك بغيته ، لجأ إلى طريقة الخداع والإرهاب ، فتمكن من جذب بعض وصيفات السلطان ، أو أحد عبيده ، وأغراه بغمس خنجر بالقرب من سرير السلطان سنجر ، حتى إذا ما استيقظ هذا ، ارتاع ، وهذه طريقة خطيرة من حرب الأعصاب ، تؤثر فى النفس ، حتى تجعل صاحبها عرضة للفزع والأوهام .

وقد أتبعها الحسن بما هو أشد منها ، فأرسل إلى السلطان سنجر رسالة هدده فيها قائلا : إن من يستطيع أن يغمس ذلك الخنجر فى الأرض الصلدة ، يسهل عليه أن يغمسه فى صدر السلطان(٣) ! وادعى فى الوقت نفسه ، أن الذى منعه من قتله هو حب النزارية له ، مما أجبر السلطان سنجر على فك الحصار عن « آلموت » . وكان قصد الحسن من

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ ورقة ١٠٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ١٠ ص ٢٢٦ .

(٣) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 112

تلك الحيلة ألا يضم إلى أعدائه عدوا قويا مثل السلطان سنجر ، ولكنه بهذه الطريقة الفذة يمكنه أن يجذبه إليه .

ويرى حمد الله المستوفى (١) أن الحسن الصباح كتب إلى السلطان سنجر فى إنذاره يقول : «إنه على الرغم من أنى أعيش فوق تلك الصخرة ـ آلموت ـ فإن أولئك الذين فى خدمتك، هم طوع أمرى ورهن إشارتى». ولقد ضرب الحسن بهذا السلوك مثالا أخذ يحتذيه النزارية ، فى الشام خاصة ، حتى لقد لقى نور الدين زنكى . وصلاح الدين الأيوبى ، على يد النزارية . ما لاقاه سنجر سواء بسواء ؛ واهتزت قلوبهم هلعا ، كما اهتز قلب السلطان سنجر أمام التهديد النزارى (٢).

وأما أثر تلك الرسالة ، فيظهر من تخلى السلطان سنجر عن الاستمرار فى حصار قلعة «آلموت» ، ومن اتفاقه مع الحسن الصباح . فى معاهدة خطيرة سنة ٥١٣ هـ ، كان من أثرها أن أخذ نفوذ النزارية فى الازدياد والنمو ، وأخذوا من جانبهم بعد ذلك يفتكون بمن يرونه خطرا عليهم . ومن أهم شروط هذه المعاهدة ما يلى :

أولا : أن تبقى قلاع الدعوة النزارية كما هى ، فلا يزيد النزارية فى تحصينها . وهذا الشرط لا فائدة فيه لغير النزارية ، لأن السلطان سنجر لم يكن يرسل إلى القلاع من يخبره بما أحدثه هؤلاء فيها من زيادة أو نقص . وعندنا أن السلطان سنجر لم يوافق على هذا الشرط المهين، الذى

---

(١) تاريخ جوزيده ، ج ١ ص ٤٩٦ .

(٢) انظر كتابنا «اسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم» .

لافائدة فيه ، إلا ذرا للرماد فى العيون ، كى يحفظ هيبته أمام عامة السنيين بوجه خاص .

ثانيا : ألا يشترى النزارية آلات للحرب ، أو أية أسلحة جديدة . وهذا الشرط كسابقه ، لا يفيد سوى النزارية ؛ لأنه من غير المعقول أن يستطيع السلطان سنجر الإشراف على تنفيذ هذا الشرط إشرافا دقيقا ، وبهذا يستطيع النزارية شراء الأسلحة والعدد دون علم هذا السلطان ، ويخبرنا التاريخ أنهم فعلوا بعد المعاهدة أكثر مما كانوا يفعلونه قبلها ، مما يدل على أنهم لم يعبأوا بتلك المعاهدة ولا بتنفيذ ما جاء بها .

ثالثا : أخذ النزارية على أنفسهم ، ألا يضموا إلى جماعتهم مدعوين آخرين ، ويظهر أن السلطان سنجر أراد أن يظهر للمسلمين السنيين أنه حد من نفوذ النزارية ، وأن عددهم سوف يقف عند الحد الذى وصلوا إليه ، ولكنه نسى أو تناسى أنه من المستحيل عليه ، وعلى جميع السنيين ، أن يمنعوا الناس من اعتناق المذهب النزارى ، لأنه مذهب سرى ، والدعوة إليه سرية كذلك ، فمن غير المعقول إذن أن يتمكن أحد من تنفيذ ما جاء فى ذلك البند . وبهذا نرى أن جماعة النزارية كانوا يعطون فى الظاهر للسلطان سنجر أمورا ، والحق أنهم لم يخسروا شيئا .

وأما ما تعهد به السلطان سنجر للنزارية فأمور ، أهمها :

أولا : أن يعفى هذا السلطان السلجوقى جميع إسماعيلية منطقة « كردكوه » بخراسان ، من جميع الضرائب ، مما سهل على السنيين الانضمام إلى النزارية ، تخلصا من تلك الضرائب التى كانوا يدفعونها للسلاجقة ، وبذلك نرى أن الإسماعيلية أضحوا عنصرا ممتازا عن باقى عناصر رعية دولة سنجر ،

بعد أن كانوا من العناصر التى لا يؤبه بها .

ثانيا : تعهد السلطان سنجر بأن يؤدى للنزارية سنويا جزءا من دخل إقليم « قومس »[١]. وترى فى هذا الشرط كل أنواع المهانة ، التى يكتبها أى سلطان على نفسه ، إذ كيف تكون الدولة مرهوبة الجانب ما دامت تؤدى ضريبة لجماعة ثائرة ، كان يجب عليها تأديبها ، اللهم إلا إذا كانت الدولة تعترف لتلك الجماعة بالسلطان والقـــوة ، كما تعترف على نفسها بالمهانة والذلة .

والذى نستطيع أن نخلص إليه من تلك المعاهدة ، أن السلطان سنجر أعطى للنزارية كثيرا ، ولم يأخذ منهم شيئا ، وأنه كان على هواهم ، أو على الأقل كان يعمل على مداراتهم . وقـــد استاء الفقهاء والعلماء السنيون من مسلكه . ورفضوا رفضـــا باتا أن يتكلموا عن هذه المعاهدة ، أو يسمعوا شيئا عنها ، كما تسرب الشك إلى أذهان كثير من الناس فى عقيدة السلطان سنجر ، واتهموه ، بأنه على دين النزارية .

يقول الذهبى[٢] « فسخط كثير من الناس على هذا الأمان ، ونقموه على السلطان سنجر » ، وعلى الرغم من هذا ، عقد السلطان السلجوقى الصلح ، ونفذ الكثير من شروطه ، غير أننا لم نسمع بأن الحسن الصباح أوفى بشىء

---

(١) قومس : كورة كبيرة بين الرى ونيسابور ، قاعدتها دامغان ، سالفة الذكر ومن مدنها بسطام .

(٢) تاريخ الإسلام (مخطوط بدار الكتب) ، ج ٣ ورقة ٥٠٤ .

بما تعاهد عليه »[1].

ويرجع تاريخ هذه المعاهدة إلى سنة ٥١٢ هـ أو إلى سنة ٥١٣ هـ، ومن أهم آثارها زيادة نفوذ الحسن الصباح[2]، ومهما يكن من شيء فقد كان لسنجر إزاء النزارية سياستان: أولاهما سياسة التقرب، والأخرى سياسة العداء. وقد رأينا مدى ما وصل إليه في سياسته العدائية المتراخية للنزارية.

أما سياسة التقرب فترى أن سنجر، وهو في طريقه إلى العراق، يزور إقليم الدامغان، الذي كان أهله يدينون بعقائد المذهب النزاري، كما كان على رأسه رجل من ولاة السلاجقة، هو الأمير المظفر، الذي ثار عليهم، واعتنق المذهب النزاري، وأصبح من كبار رجال الحسن الصباح. وقد تمكن بدهائه من أن يحصل من السلطان سنجر على خزائن وإلى إقليم الدامغان السابق». ولما عزم بعض قواد السلاجقة على استرداد ما استلبه الرئيس الإسماعيلي المظفر، رفض السلطان سنجر ذلك، وأثنى الثناء الجميل على هذا الداعي، وسنرى كيف استغل السلطان سنجر ميل النزارية إليه، وأخذ يوجه خناجرهم ضد منافسيه ومن يريد التخلص منهم.

كما لا ننس أن كبار رجال سنجر كانوا يميلون إلى النزارية، وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى رجال السلطان محمود ابن أخيه. ولم يهتم السلطان سنجر بما أحدثه نزارية الحسن من الاعتداء على المساجد بالحرق والفقهاء والوزراء بالقتل، ونقضهم معاهدة سنة ٥١٣ هـ تبعا لذلك، مما زاد في شك الرعية في إخلاص سنجر الديني. والخلاصة أن السلطان سنجر لم يوجه

(١) D'Ohsson : Hist. des Mongoles, vol. III, p. 161

(٢) المستوفي : تاريخ جوزيدة، ج ١ ص ٤٩٧.

جهوده الحربية ضد الحسن الصباح ، بعد معاهدة سنة ٥١٣ هـ .

وقد أدرك الحسن الصباح مدى ما وصل إليه من نجاح ، فعبر عن ذلك لأحد أنصاره وقال : إنه سوف يعمل على أن يرتقى بدعوته دينيا مثل رقيها سياسيا (١) . وهكذا لم يمت الحسن الصباح ، حتى كان قد استغوى طوائف من الناس ، وفشى مذهب الباطنية ونما ، واعتقده خلق من الأكابر فى باطن الأمر ، وما يزال يستفحل أمرهم (٢) .

(ى) تقدير أعمال الحسن الصباح فى بلاد المشرق :

نجح الحسن الصباح نجاحا كاملا فى تكوين مجتمع إسماعيلى بحت ، وفى الانتصار على السلاجقة فى بلاد المشرق ، وهذا أقصى ما وصل إليه داع إسماعيلى فى تلك البلاد ، فقد استطاع هذا الزعيم الإسماعيلى المتطرف ، أن يكوّن جبهة قوية من قلاع الدعوة المنيعة التى لا يمكن لأحد أن يخترقها ، كما استطاع أن يضرب لخلفائه من رؤساء الدولة النزارية ، المثل العليا ، التى يجب عليهم أن ينهجوها ، حتى يعيشوا فى مأمن من خطر السلاجقة وغيرهم من السنيين . فاعتاد الأتباع أن يعيشوا فى قلاع الدعوة ، التى كانت تربض فوق قمم الجبال ، بمنأى عن متناول الأيدى .

---

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، ج ١ ص ٤٩٦ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٢٠ .

واستطاع الحسن فى الوقت نفسه أن يبعث بنبغاء أتباعه إلى بعض المدن السنية ، مثل أصفهان، ليعيشوا بجانب السنيين ، ويعملوا على زعزعة عقائدهم ، وبلبلة أفكارهم ، ويتجسسوا على السلاجقة ، ويضموا إلى صفوفهم كثيرا من موظفيهم ، الأمر الذى جعل لهذه الطائفة مركزا ممتازا فى أمهات المدن الإسلامية .

على أن أهم ما يميز الصراع بين السلاجقة والحسن الصباح فى فارس وخراسان، هو استماتة النزارية فى الدفاع عن أنفسهم وعن رئيسهم ومذهبهم، فقد استطاعوا أن يصمدوا أمام جيوش السلطان ملكشاه وولاته ، وأن يلقنوا السنيين دروسا لا تنسى، فى الاستماتة وشدة البأس، ويبرهنوا لهم بشتى الوسائل على أن النزارية أصبحوا قوة يُخْشَى بأسها ، فلم يكونوا كعامة الإسماعيلية الأوائل الذين كانوا يعيشون على التجسس وابتداع التقية، وغير ذلك من الصفات التى حتمت على السلاجقة أن يقفوا منهم موقفا سلبيا ، أما الحسن الصباح وأنصاره ، فكان موقفهم الإيجابى من السنيين عاملا حاسما فى تاريخ إسماعيلية فارس وخراسان ، الذين دأبوا منذ أيام الحسن الصباح ، على مناوأة السنيين والكيد لهم .

على أن نجاح الحسن فى صراعه مع خلفاء ملكشاه كان أبعد أثرا ، فقد اعترف به بعض سلاطينهم كرئيس دينى ، وعقدوا معه المعاهدات ، وجعلوا يتوددون إليه ، ويعاملونه كما يعامل الملوك . فكان هذا السلوك اعترافا صريحا بالحسن الصباح ودولة النزارية .

ولم يمت الحسن الصباح فى سنة ٥١٨ هـ إلا بعد أن استقامت له

الأمور ، وبعد أن أقام دولة فريدة فى نوعها ، تتكون من قلاع متناثرة فى أقاليم مختلفة ، ولكنها جميعا كانت تدين له بالطاعة والولاء . وكذلك نسب إلى الحسن الصباح إرسال نبغاء دعاته إلى بلاد الهند ، لنشر المذهب النزارى أولا ، والاصطراع مع الإسماعيلية المستعلية ، أتباع المستعلى بن المستنصر . فوضع بذلك نواة النزارية المحدثين ، أتباع سمو أغا خان ، الذين يعرفون اليوم باسم «الخوجات» Khodjas أى الرؤساء الدينيين ، أو « الآغاخانية » نسبة إلى أغاخان .